

صفات أصحاب العقول في القرآن الكريم

لا ريب أن الله تعالى رفع التكليف عن غير العاقل، ووجه خطابه للإنسان العاقل، ولذلك كان من تكريم الله تعالى له وتفضيله على بقية المخلوقات أن جعله عاقلًا، فالعقل هو المخاطب وبه كرمه الله، وعليه كان من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ العقل، إذ هو الذي يتعامل مع الوحي فهماً واستنباطاً وتنزيلاً على الواقع.

فما هي صفات أصحاب العقول التي بوأتهم هذه المنزلة؟

الأستاذ: رابح زرواتي
كلية العلوم الإسلامية باتنة



يتروى ويفكر ويتردد.. وفي القصص حياة على معناها الأشمل الأعم، فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي يشترك مع القتل في سمة الحياة، فإذا كف القصص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة، بل حياة⁽¹⁾.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي النَّالِبِ﴾ [البقرة: من الآية 197].

أوصى الله تعالى بالتقوى⁽²⁾ فعم بها الناس جميعا الأولين والآخرين فقال:

ذكر الله تعالى أولي الأبواب في القرآن الكريم ست عشرة مرة، نتابع تدبرها حسب ترتيب المصحف.

في سورة البقرة ثلاث آيات هي:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي النَّالِبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179].

القصص في القتلى فيه حياة للفرد والمجتمع، ولا يدرك ذلك إلا أصحاب العقول الذين يتأملون بعمق هذه الآية كما يدرسون الواقع بوعي وموضوعية فيعلمون أن (الحياة التي في القصص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل، جدير به أن

في رحاب القراءة والسنة

البصيرة المستبيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال، وذلك خير كثير متنوع الألوان⁽⁵⁾.

وفي سورة آل عمران آيتان:

الأولى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

من صفات أصحاب العقول عدم البحث في الغيبات وفيما وراء المادة، لأن البحث فيه غير موصل إلى نتائج يقينية، ولذلك يسلم أصحاب العقول بأن كلا مما هو محكم ومتشابه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه⁽⁶⁾.

والثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: من الآية 131]، وخص بها أولي الأبواب فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: من الآية 197].

والتقوى مرتبة عالية يسعى للوصول إليها أصحاب العقول (والتقوى زاد القلوب والأرواح، منه تقفات، وبه تتقوى وترتفع وترقى، وعليه تستند في الوصول والنجاة، وأولو الأبواب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد)⁽³⁾.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

فالحكمة (هي توحي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصر وروية وإدراك)⁽⁴⁾.

من صفات صاحب العقل أنه (أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود، وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتي

وَالْأَرْضُ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿آل عمران:
190-191﴾.

إن البحث في الكون والمادة هو الذي يطيقه العقل، فيكتشف ما كان مجهولاً لديه، ويدرك عظمة الخالق من خلال دقة صنعه، وتتأسق مصنوعاته، وتكامل وظائفها، ويسخر الكون لخدمة الدين والإنسان.

وهذه صفة أصحاب العقول الذين يستثمرون عقولهم في المجال الذي تصلح له وتقدر عليه.

وفي سورة المائدة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

يتأثر العوام والسطحيون بالكثرة والقلة في معرفة الحق والباطل، فيحكمون على الشيء أنه حق لكثرة أتباعه، ويحكمون على الآخر بأنه باطل لقلتهم، أما أصحاب العقول فلا تغرهم الكثرة ولا تقنطهم القلة، فهم يتميزون بالبحث الحر الذي لا علاقة له بكثرة الأصوات وقلتها.

وفي سورة يوسف قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

الفائدة الأولى من دراسة التاريخ تتمثل في تصحيح الوضع الحاضر، والاستعداد لبناء مستقبل أفضل، وهذا من صفات أصحاب العقول الذين يأخذون العبرة من غيرهم فيتجنبون أخطاء الأمم السابقة.

وفي سورة الرعد قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 19، 20].

الأخلاق الحميدة هي مسعى أصحاب العقول، فقد جمعوا بين العقول النيرة والفضائل النبيلة، ولذلك صاروا نماذج في سمو العقول وطهارة النفوس.

وفي سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: 52].

الآيات السابقة في السورة تحكي لنا استمرار الصراع بين الحق والباطل،

والثاني قوله تعالى عن أيوب عليه السلام:
**﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
 مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 43].**

ضرب الله تعالى مثلاً في القرآن
 أيوب عليه السلام الذي طال ضره ومع ذلك لم
 ييأس، وبقي صابراً دائماً للجوء
 والتضرع إلى الله تعالى، حتى أتاه
 بالفرج، وكذلك يكون أصحاب العقول
 أمام الشدائد والنكبات التي قد تحل
 بالإنسان، فلا ملجأ إلا إلى الله، ولا بد
 من التسليم بقضاء الله وقدره، وانتظار
 الفرج دون جزع ولا قنوط.

وفي سورة الزمر ثلاثة مواضع:

الأول قوله تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ
 آثَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
 وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
 الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا
 يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9].**

من صفات أصحاب العقول التزود
 بالطاعات والأعمال الصالحات ليوم
 اللقاء برب العالمين، فهم بعد الجد في
 نهارهم يحيون ليلهم بالذكر والفكر
 والركوع والسجود بين يدي الله تعالى،
 إنهم يجدون اللذة والراحة في مناجاة
 خالقهم عز وجل.

ثم تختتم السورة بهذه الآية، وفي ذلك
 إشارة إلى أن استمرار الحق في
 مناجزة الباطل وتقليص خطره، يتمثل
 عملياً في أشخاص أصحاب العقول
 الذين يحملون رسالة الحق ويبلغونها
 قصد هداية الخلق كافة، وتلك وظيفة
 الدعاة المستتيرين.

وفي سورة ص موضعان:

الأول قوله تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
 إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا
 الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].**

لا ريب في بركة كتاب الله تعالى
 على من يقرأه وفي المكان الذي يقرأ
 فيه، وأهم من ذلك كله بركته على من
 يعمل به ويسترشد بهديه، ويقف عند
 حدوده، قال أبو هريرة رضي الله عنه:
 (إن البيت الذي يتلى فيه القرآن يتسع
 بأهله ويكثر خيره، وتحضره الملائكة،
 وتخرج منه الشياطين، وإن البيت الذي
 لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل يضيق
 بأهله، ويقل خيره، وتخرج منه
 الملائكة، وتحضره الشياطين).

وأولو الأبواب يعيشون دائماً بالقرآن
 ومع القرآن: قراءة ودراسة وتدريساً
 ودعوة ومنهج حياة.

في رحاب القراءة والسمعة

من صفات أصحاب العقول أنهم يستعملون عقولهم في التفكير في بديع صنع الله، ويجدون ذلك في جميع مخلوقاته سبحانه، في دورة الماء في الكون ودورة النبات في الأرض، وفي أنواع الأطعمة وروائح الزهور... إلى آخره، فيصل أصحاب العقول — باستخدام عقولهم — إلى معرفة الله حق معرفته، ومن ثم يعبدونه حق عبادته سبحانه وتعالى.

وفي سورة غافر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ. هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: 53، 54].

من صفات أصحاب العقول أن علمهم يوصلهم إلى معرفة الحق واتباعه، وذلك هو المطلوب من أولي الألباب سواء في عهد موسى عليه السلام أو في عهد محمد ﷺ.

وفي الموضع الأخير من ذكر أولي الألباب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ

قال أبو سليمان الداراني⁽⁷⁾: (لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا)، وقال مالك بن دينار⁽⁸⁾: (ما تنعم المتعممون بمثل ذكر الله تعالى).

والثاني قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 17، 18].

من صفات أصحاب العقول أيضا أنهم لا يتعصبون لفكرة شخصية أو لرأي قديم، بل إنهم ينشدون الحق والصواب بغض النظر عن صدر، فهم يتطلعون إلى الأكمل والأفضل في كل شيء. وما أحوج الأمة إلى هؤلاء لأن بهم تبني الحضارة، ورحم الله المتبني حيث قال:

ولم أر في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام

والثالث قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ صَفْراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21].

في رحاب القراءة والسنة

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [الطلاق: 10، 11].

من صفات أصحاب العقول أنهم يقتدون بمحمد ﷺ، فسيرته وسنته هي التطبيق العملي للقرآن الكريم، ففي سنته ﷺ النور الذي يضيء للإنسان طريقه، وفي سيرته ﷺ الهدى والرشاد.

ومن خلال هذه الآيات الكريمة نعرف الصفات الفاضلة التي تحلى بها هؤلاء فرفعتهم إلى هذه المنزلة: منزلة أولي الأبواب، وهي بإجمال:

إدراكهم أن الحياة السعيدة والكاملة تكمن في تطبيق شرع الله تعالى كتشريع القصاص، والصفة الثانية التقوى، والثالثة الحكمة، والرابعة اتباع المحكم من القرآن وترك الخوض في المتشابه، والخامسة التفكير في مخلوقات

الله وذكره على كل حال، والسادسة إتباع الحق بغض النظر عن كثرة أو قلة أتباعه، والسابعة أخذ العبرة من غيرهم، والثامنة الوفاء بالعهد والتحلي بكل خلق حميد، والتاسعة وراثة الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، والعاشرة تدبر القرآن والعمل به، والحادية عشرة الصبر ودوام اللجوء إلى الله تعالى، والثانية عشرة قيام الليل، والثالثة عشرة اتباع الأحسن، والرابعة عشرة معرفة الله وطاعته، والخامسة عشرة معرفة الحق واتباعه، والسادسة عشرة الاقتداء برسول الله ﷺ.

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: (إن الأمم المتخلفة عقليا لا تتصل بالإسلام إلا دعوى، وإنها ما تصدق في هذا الانتماء المزعوم إلا يوم تكون من أولي الأبواب)⁽⁹⁾

الهوامش

- (1) سيد قطب، في ظلال القرآن، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة 1386هـ - 1967م: 70/2، 71.
- (2) التقوى هي حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للملام أو العذاب. انظر الدكتور الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، طبعة دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1401هـ - 1981م: 202/1.
- (3) في ظلال القرآن: 119/2.
- (4) المرجع نفسه: 62/3.
- (5) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (6) انظر الزمخشري، الكشاف، نشر دار المصنف، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية 1397هـ - 1977م: 162/1.
- (7) أحد العلماء الربانيين، توفي سنة 205هـ . انظر ابن الجوزي، صفة الصفوة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، طبعة 1419هـ - 1999م: 189/4.
- (8) من كبار الصالحين في زمانه، توفي حوالي سنة 130هـ. انظر صفة الصفوة: 173/3.
- (9) علل وأدوية، طبعة دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة - الجزائر، طبعة 1406هـ - 1986م: ص 47.